التصوف الاسلامى

نشأته ورسالته

للدكتور أحمد علوبه

رئيس جمعية منع المسكرات

- ٢ -

ولكن ماهو التصوف

ومهما يكن من خلاف فى أمر اشتقاق كلمة التصوف فإنه لاخلاف البتة بين أئمة الصوفية فى حقيقة معنى التصوف فقد اجمعوا على أنه الطريق الوحيد السلطانى الذى يؤدى إلى اكتساب المعارف الإلهية والفتوحات الربانية والأذواق والمواجيد الباطنية مما يزيل كافة الشكوك والريب والغموض والإبهام من دخيلة النفس فيما يتصل بالكثير من المعتقدات الدينية التى لابد من الإيمان بها . ومنها مثلا عقيدة القضاء والقدر التى تدل على أن الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء مع اعتقاد أن المهتدين يؤجرون بدخول الجنة وأن العصاة يدخلون النار فإن العقل قد يظل حائراً فى سبيل التوفيق بين الأمرين وهناك مسألة الإيمان بالبعث والنشور بعد الموت والفناء وهناك الاعتقاد بخلق الملائكة والجان والشياطين وهذه مخلوقات لامثال لها من المنظورات والمحسوسات ثم مسألة خلق البشر من طين وتراب وخلق الطين والتراب من لاشىء . وهناك مسألة النبوة والرسالة وأن الله تعالى يكلم المصطفين الأخيار من عباده وينزل عليهم الوحى من سمائه . فما هذا الوحى وكيف يكون . وما هى تلك النبوة وكيف تكون وهناك مسألة المسائل وهى الاعتقاد بوجود الله تعالى وجوداً أزلياً وأبدياً قبل أن يوجد الزمان والمكان فالعقل الراجح والمنطق الصحيح الواضح يوجبان هذا الاعتقاد على كل عاقل والإيمان به فى غير ماتردد ولكن الإيمان بالشىء تتفاوت درجاته فقد ينقص إلى حد أن يكون ظنا أو أقل من الظن تبعاً للمعاصى

التى يرتكبها الإنسان قلة وكثرة وقد يتزايد إلى حد أن يكون عيانا ومشاهدة وهذا تبعاً لمقدار ما يقوم به المرء من طاعة الله والإقبال على عبادته ضعفاً وقوة .

وقد دلت سير المتصوفين الأولين السابقين ممن وصلوا إلى الله تعالى وصول مشاهدة ومعاينة يجلان عن الوصف ويدقان عن العبارة على أن هـذه الطريقة هى الكفيلة حقا بالقضاء على كل غموض وإبهام فى أمور الدين وعقائد الإيمان كما قال سيد المتصوفين على ابن أبى طالب لو كشف لى الغطاء ما ازددت يقينا وإن هى إلا رياضة روحية مباركة ورحلة فى طريق العبودية موفقة ينبلج أمام قلب السائر فيها نور اليقين فعين اليقين فحق اليقين حيث تنهزم من أمام بصيرته ظلمات الحيرة والقلق ويمتلىء الباطن عرفاناً وإيماناً بكل ما نطق به الرسل الكرام وجاؤا به من عند الله .

وحدة العقيدة :

وعند الصوفية إن دين الله تعالى واحد فى جميع العصور والأجيال ولم يكن فى أى زمن سبق سوى الإسلام وأعنى به التسليم المطلق والخضوع التام لأوامر الله تعالى وما جاء به المرسلون من الشرائع والأحكام ، وإن اختلاف الأديان لم يتناول العقائد قط وإنما يتناول أعمال العبادات وكيفياتها وطقوسها تبعاً لحاجة العصر وتعاقب الأزمان فالأديان جميعها من حيث أصولها لا تباين بينها ولا خلاف . وأساس ذلك الاعتقاد بوجود الله ووحدانيته واتصافه بكل ما يتصور من صفات الكمال وتنزهه عن كل نقص يخطر على البال ، والاعتقاد بملائكته وبكتبه المنزلة وبرسله المرسلة وباليوم الآخر وهو يوم الحساب وبالقضاء خيره وشره من الله . وليست العبادات فى جميع الأديان مطلوبة لذاتها من صلاة وزكاة وصوم وحج وقربة وإنما هى وسائل لابد منها للمتدين كما يصل بها إلى تطهير قلبه من أدران الشهوات تطهيراً ترقى به الروح إلى القرب من الله ودخول الجنة فهى أشبه بالعلاج الذى يتداوى به الجسم من الأمراض وكما أن تعاطى المريض لما يصفه له طبيب الأجسام من علاج يهمه وحده دون الطبيب الذى يعالجه إذ المريض هو الذى سينال به الشفاء دون الطبيب فإن الله تعالى غنى بذاته عن عبادة عباده فهم الذين سيجنون وحدهم فائدة هذه العبادة .

ولما كانت النفوس البشرية بحكم تكوينها وخلقتها الحيوانية بحاجة إلى تطهيرها

ومداواتها من آثار العلل الشهوانية حتى تصفو وترتقى وتصير أهلا للعودة إلى ربها وخالقها راضية مرضية فإن المتصوفين هم أشد عباد الله تمسكا بأحكامه وأوامره المقررة فى الشريعة كما أتى بها الرسول من الله فمن قال إن الصوفيين أهل تفريط فى التمسك باهداب الشرائع الالهية فقد ظلمهم وافترى عليهم فما جاء فى كتب المستشرقين من الأوربيين عن تهاون أرباب الطرق الصوفية برسوم الشريعة مخالف للواقع بعيد عن الصواب

والحق أن المتصوف لايكتفى مثل سائر المسلمين بالقيام بظاهر العبادات المسنونة فى الدين بل ينظر بنور البصيرة إلى ما تنطوى عليه الرسوم والأحكام من حكمة وأسرار فيغوص لالتقاطها واستخراج هذه الأسرار من بواطنها ومكامنها كما يغوص السباح الماهر لالتقاط الأصداف من قيعان البحار لارغبة فى الأصداف ذاتها بل ليستخرج منها الجواهر واللؤلؤ الغالى . فالصلاة مثلا عبادة مطلوبة لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر .فيها ذكر الله وذكر الله أجل شأنا وأكبر وهى لا تحقق هذا الغرض إذا كان المصلى لايؤديها وهو حاضر القلب لا يفكر فى أثنائها إلا فى أدائها على الوجه الأكمل . فالمتصوف يحرص كل الحرص على الفوز بأسرار الصلاه على هـذا الوجه فلا يصلى وهو شارد الفكر ينصرف بقلبه فى خلالها نحو السوق ومصالح الدنيا من مال أو ولد .وكذلك الشأن فى سائر العبادات المفروضة فإن الصوفى يعرف ماتنطوى عليها من حكمة وأسرار فيحرص على بلوغها ويحذر من كل ملابسة تؤدى إلى ضياعها . وكم يشفق المتصوفون على عوام المسلمين حين يصلون وهم عن صلاتهم ساهون فلا يفيدهم قيامهم بها على هذا الوجه أجراً فضلا عن تطهيرهم من الفحشاء والمنكر وهكذا الذهول من المسلمين عن أسرار العبادات وعدم الحرص عليها وقلة الحذر من تفويت حكمتها عليهم كان السبب الأكبر فى نظر المتصوفين لما أصاب المستوى الروحى فى العهود المتأخرة للاسلام من الضعف والإنحطاط :

التصوف من الناحية التاريخية

وقد يتساءل الكثيرون عن السبب فى عدم انتشار الدعوة إلى التصوف فى صدر الإسلام وعدم ظهور هذه الدعوة إلا بعد عهد الصحابة والتابعين . والجواب عن هذا

أنه لم تكن من حاجة إليها فى العصر الأول لأن أهل ذلك العصر كانوا أهل ورع وتقوى وأرباب مجاهدة وإقبال على العبادة بطبيعتهم وبحكم قرب اتصالهم برسول الله فكانوا يتسابقون ويتبارون فى الإقتداء به فى ذلك كله فلم يكن ثمة مايدعو إلى تلقينهم علما يرشدهم إلى أمرهم قائمون به فعلا وإنما مثلهم فى ذلك كمثل العربى القح يعرف اللغة العربية بالتوارث كابر عن كابر حتى أنه ليقرض الشعر البليغ بالسليقة والفطرة دون أن يعرف شيئاً من قواعد اللغة والإعراب والنظم والتقريض فمثل هذا لا يلزمه أن يتعلم النحو ودروس البلاغة ولكن علم النحو وقواعد اللغة والشعر تصبح لازمة وضرورية عند تبلبل الألسن أو لمن يريد من الأجانب أن يتفهمها لينتفع بها أو عندما يصبح هذا العلم ضرورة من ضرورات الإجتماع كبقية العلوم التى نشأت وتألفت على توالى العصور فى أوقاتها المناسبة . فالصحابة والتابعون وإن لم يتسموا باسم المتصوفين فإنهم كانوا صوفيين فعلا وإن لم يكونوا كذلك . وماذا يراد بالتصوف أكثر من أن يعيش المرء لربه لانفسه والتحلى بالزهد وملازمة أسباب العبودية والإقبال على الله بالروح والقلب فى جميع الأوقات مما وصل به الصحابة والتابعون من حيث الرقى الروحى إلى أسمى الدرجات فهم لم يكتفوا بالإقرار بعقائد الإيمان والقيام بفروض الإسلام بل قرنوا الإقرار بالتذوق والوجدان وزادوا على الفروض الأتيان بكل ما استحبه الرسول من نوافل العبادات وابتعدوا عن المكروهات فضلا عن المحرمات حتى استنارت بصائرهم وتفجرت ينابيع الحكمة فى قلوبهم وفاضت الأسرار الربانية من جوانبهم . وكذلك كان شأن التابعين وهذه العصور الثلاثة كانت أزهى عصور الإسلام وخيرها على الإطلاق . وقد جاء عن رسول الله وخاتم الأنبياء قوله خير القرون قرنى هذا فالذى يليه والذى يليه .

التطور التاريخى

فلما تقادم العهد ودخل فى حظيرة الإسلام أمم شتى وأجناس عديدة واتسعت دائرة الإرشاد والتبيين فى مختلف ميادين المعرفة والعلوم فمن ثم وجب تقسيم العمل وتوزيعه بين أرباب الإختصاص فقام كل فريق بتدوين الفن والعلم الذى يجيده أكثر من غيره فنشأ بعد تدوين النحو فى الصدر الأول علم الفقه وعلم التوحيد وعلوم الحديث

وأصول الدين والتفسير والمنطق ومصطلح الحديث وعلم الأصول والفرائض (الميراث) وغيرها . وحدث بعد هذه الفترة أن أخذ التأثير الروحى يتضاءل شيئاً فشيئاً وأخذ الناس يتناسون ضرورة الإقبال على الله والعبودية بالقلب والهمة مما دعا أرباب الرياضة والزهد إلى أن يعملوا هم من ناحيتهم أيضاً على تدوين علم التصوف وإثبات شرفه وخلاله وفضله على سائر العلوم ولم يكن ذلك منهم احتجاجاً على انصراف الطوائف الأخرى إلى تدوين علومهم كما يظن ذلك خطأ بعض المستشرقين بل كان يجب أن يكون سداً للنقص واستكمالا لحاجات الدين فى جميع نواحى النشاط مما لابد منه لحصول التعاون على تمهيد أسباب البر والتقوى .

وقد بنى أئمة الصوفية الأولون أصول طريقتهم على ماثبت فى تاريخ الإسلام نقلا عن الثقات الأعلام أنه حدث فى العام الأول للهجرة أن اجتمع بضعة عشر رجلا من المهاجرين ومثل ذلك من الأنصار من أهل المدينة وتقاسموا بينهم أن يزهدوا فى الدنيا ونعيمها الزائل ويقبلوا على الله والدار الآخرة ويشغلون جميع أوقاتهم ولاسيما فى أوقات السحر والغسق بصنوف العبادات حبا بالله واقتداء برسله فكان هذا التقاسم بمنزلة عهد قطعوه على أنفسهم لله لامناص لهم من الوفاء به وإلا كانوا آثمين وذلك مايسمى بالعهد بين أهل الطريق إلى الآن . وكان أساس زهدهم فى الدنيا قول النبى صلى الله عليه وسلم « الفقر فخرى » ومن هنا جاءت التسمية التى أطلقوها على أنفسهم ومن دخل فى طريقهم وسلك سبيلهم وهى (الفقراء) فالواحد منهم كان ولايزال يسمى بالفقير عندهم ليس من هو بحاجة إلى معونة الغير بل معناها الفقير إلى رحمة الله المستغنى به عن الخلق جميعاً .

الرسول يلقن أصحابه الذكر

كذلك ثبت عندهم أن النبى لقن أصحابه ذكر لا إله إلا الله جماعة وفرادى فأما تلقينة لأصحابه جماعة فقد رواه شداد بن أوس فى حديث صحيح قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هل فيكم غريب؟ يعنى من أهل الكتاب قلنا لا يارسول الله فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بغلق الباب وقال ارفعوا أيديكم وقولوا لا إله إلا الله فرفعنا أيدينا ساعة وقلنا لا إله إلا الله ثم قال رسول الله صلى الله علية وسلم ألا أبشروا

فإن الله قد غفر لكم . وأما تلقينه صلى الله عليه وسلم لأصحابه فرادى فقد قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله دلنى على أقرب الطرق إلى الله عز وجل وأسهلها على عباده وأفضلها عند الله فقال يا على عليك بمداومة ذكر الله عز وجل سراً وجهراً فقال على : كل الناس ذاكرون يارسول الله وإنما أريد أن تخصنى بشىء فقال رسول الله « ياعلى إن أفضل ماقلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله إلى آخر الحديث الشريف . فهذا أصل سند القوم فى تلقين الذكر إلى اليوم وهم يرون من فوائده ارتباط القلوب بعضها ببعض إلى رسول الله وإن أقل مايحصل للمريد الصادق إذا دخل فى سلسلتهم بهذا التلقين أن يكون إذا حرك به حلقة لسانه جاوبته أرواح الأولياء من شيخه إلى رسول الله فمن لم يدخل فى طريقهم بالتلقين فهو غير معدود منهم وقلما يفتح عليه بما فتح به عليهم .

ويروى أن أبا بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين كان يتولى قياة فريق من أولئك الفقراء كما أن علياً بن أبى طالب بن عم النبى ورابع الخلفاء كان يقود فريقاً آخر . وبعد وفاة أبى بكر أخلفه فى طريقته سلمان الفارسى أحد كبار الصحابة من أهل فارس وبعد وفاة على تولى خلافة طريقته الحسن البصرى وكان كل منهما يسمى بالخليفة ولهذا صار يطلق اسم الخليفة إلى يومنا هذا على كل شيخ من مشايخ الطرق الصوفية .

التصوف والقرآن

ويتمسك المتصوفون فى إقبالهم على الله بالهمة وصدق العبودية ، بما جاء فى القرآن وهو قوله تعالى :

« قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين » .

ولهذا أوجب الفقراء أى المتصوفون على أنفسهم أن يكونوا فى جميع الحالات على قدم الاستعداد للتضحية بهذه المصالح الدنيوية كلها فى سبيل قيامهم بحق العبودية

لله وحده فلا تلهيهم تجارة ولا بيع ولا أى متاع آخر عن ذكر الله وعبادته واضعين نصب أعينهم الغرض الأسمى من خلقهم ووجودهم فى هذه الحياة الدنيا وهو ما جاء فى قول الله تعالى . « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .

وقد دل تاريخ هؤلاء القوم على أن عمدتهم فى التقرب إلى الله فوق قيامهم بالفروض المقررة عليهم فى الإسلام التزامهم أذكاراً وأورادا كل صباح ومساء وأم هذه الأذكار ذكر لا إله إلا الله ثم الصلاة على النبى ومعناها استنزال البركات اليومية الربانية على روحه صلى الله عليه وسلم .

وعندهم كما ثبت بالتجارب والممارسة أن لذكر الله باللسان مع حضور القلب وبالكيفية المخصوصة المتفق عليها لدى شيوخهم وطوائفهم أثراً كبيراً يعجز القلم عن وصفه فى تصفية الباطن وتنوير القلب بالأنوار والفتوحات الربانية كما ثبت فى مثل ذلك للصلاة على النبى ، والمسلمون مأمورون فى القرآن بهذه الصلاة وهى فرض عين على كل مسلم صوفيا كان أو غير صوفى وإنما المتصوفون يكثرون منها جهد الطاقة لما لها من الأثر العظيم فى جلاء مرآة القلب وصفاء الروح صفاء عجيبا مظهره الأكبر تملك حب الله ورسوله من صميم نفوسهم .

وأما تسميتهم بالمتصوفين فلم تحدث أو بالأخرى لم يرد لها ذكر فى كتب التصوف المتعددة إلا بعد عصر الخليفة المأمون سابع الخلفاء العباسيين (١٩٨ هجرية أو ٨١٣ — ٨٣٣ ميلادية) وقد كان ذلك العصر ازهر عصور الأدب العربى وفيه توفر العرب على نقل العلوم والفلسفة الأجنبية . والظاهر أنهم التقوا فيها بكلمة تيو صوفية اليونانية فعربوها ونحتوا منها اسما معربا أطلقوه على جماعة الفقراء فكان هذا الإسم هو التصوف لأن كلمة الفقراء لم تكن وافية فى ذاتها فى الإبانة عن المعنى الذى يتميز به المتصوفون عن غيرهم من المسلمين وقد المعنا إلى بيان ذلك من قبل .

وأما كلمة الصوفية وكلمة الصوفى فهما كذلك منحوتتان من نفس كلمة تيوصوفية المتقدم ذكرها وقد أطلقت الأولى أو الصوفية على العلم نفسه والصوفى على من تحقق بهذا العلم وتلبس به . وأما كلمة المتصوف والتصوف فقد استعملت الأولى منهما للدلالة على السالك فى هذا الطريق الآخذ فى أسباب التحقق به واستعملت الثانية (التصوف) على سلوك الطريق

البحث مستمر